تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر وقد ثبت في الصحيح عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال [إن ا تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل] وقوله D : { ونحن أقرب إليه من حبل الوريد } يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع تعالى ا وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : { ونحن أقرب إليه من حبل الوريد } كما قال في المحتضر { ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون } يعني ملائكته وكما قال تبارك وتعالى : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن ا D وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار ا جل وعلا لهم على ذلك فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ولهذا قال تعالى ههنا : { إذ يتلقى المتلقيان } يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان .

{ عن اليمين وعن الشمال قعيد } أي مترصد { ما يلفظ } أي ابن آدم { من قول } أي ما يتكلم بكلمة { إلا لديه رقيب عتيد } أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى : { وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون } وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام وهو قول الحسن وقتادة أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس Bهما فعلى قولين وظاهر الاية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزني Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان ا عليه وسلّم تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب ا D له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط ا تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب ا تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه] فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو به وقال الترمذي : حسن صحيح وله شاهد في الصحيح .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمير على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر ا تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها رواه ابن أبي

حاتم وقال الحسن البصري وتلا هذه الاية { عن اليمين وعن الشمال قعيد } يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والاخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى يخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : { وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا } ثم يقول : عدل وا فيك من جعلك حسيب نفسك .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره وذلك قوله تعالى : { يمحو ا ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب } وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات : D يقول { تحيد منه كنت ما ذلك بالحق الموت سكرة وجاءت } : وتعالى تبارك وقوله C وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه { ذلك ما كنت منه تحيد } أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص .

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله : { وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد } فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو وقيل الكافر وقيل غير ذلك وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد سبلان أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده علقمة بن وقاص قال : إن عائشة Bها قالت : حضرت أبي Bه وهو يموت وأنا جالسة عند رأسه فأخذته غشية فتمثلت ببيت من الشعر : .

من لا يزال دمعه مقنعا فإنه لا بد مرة مدفوق .

قالت : فرفع Bه رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ولكن كما قال تعالى : { وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد } وحدثنا خلف بن هشام حدثنا أبو شهاب الخياط عن إسماعيل بن أبي خالد عن البهي قال : لما أن ثقل أبو بكر Bه جاءت عائشة Bها فتمثلت بهذا البيت : .

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر .

فكشف عن وجهه وقال Bه : ليس كذلك ولكن قولي { وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد } وقد أوردت لهذا الأثر طرقا كثيرة في سيرة الصديق Bه عند ذكر وفاته وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى ا عليه وسلّم أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : [سبحان ا إن للموت لسكرات] وفي قوله : { ذلك ما كنت منه تحيد } قولان : (أحدهما) أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتناءى وتفر قد حل بك ونزل

بساحتك (والقول الثاني) أن نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه وقد قال الطبراني في المعجم الكبير : حدثنا مؤمل بن علي الصائغ المكي حدثنا حفص عن ابن عمر الحدي حدثنا معاذ بن محمد الهذلي عن يونس بن عبيد عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهد دخل حجره وقالت له الأرض يا ثعلب ديني فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات] ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت .

وقوله تبارك وتعالى : { ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد } قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفزع والصعق والبعث وذلك يوم القيامة وفي الحديث أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له] قالوا : يا رسول ا كيف نقول ؟ قال صلى ا عليه وسلّم : [قولوا حسبنا ا ونعم الوكيل] فقال القوم : حسبنا ا ونعم الوكيل { وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد } أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله هذا هو الظاهر من الاية الكريمة وهو اختيار ابن جرير ثم روي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع مولى لثقيف قال : سمعت عثمان بن عفان Bه يخطب فقرأ هذه الاية { وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد } فقال سائق يسوقها إلى ا تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد وقال مطرف عن أبي جعفر مولى أشجع عن أبي هريرة Bه قال : السائق الملك والشهيد العمل وكذلك قال الضحاك والسدي وقال العوفي عن ابن عباس Bهما : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضا .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى : { لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد } (أحدها) أن المراد بذلك الكافر رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان (والثاني) أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر لأن الاخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام وهذا اختيار ابن جرير ونقله عن حسين بن عبد ا بن عبيد ا عن عبد ا بن عباس Bهما (والثالث) أن المخاطب بذلك النبي صلى ا عليه وسلّم وبه يقول زيد بن أسلم وابنه والمعنى على قولهما : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو والمراد بقوله تعالى : { لقد كنت في غفلة من هذا } يعني من هذا اليوم { فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد } أي قوي لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك قال ا تعالى : {

أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا } وقال D : { ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون }